بضعة منه

كان لعمر بن عبد العزيز أسرة كبيرة . أبناؤه فيها اثنا عشر ، وهم عبد الملك ، وعبد العزيز ، وعبد الله ، وابراهيم ، واسحق ، ويعقوب ، وبكر ، وموسى ، والوليد ، وعاصم ، ويزيد ، وزيان ، أما بناته فهن أمينة ، وأم عمار ، وأم عبد الله ، وكان أكبر أبنائه عبد الملك عونا لأبيه ومرآة صادقة لسلوكه . وقد أدبه أبوه فأحسن تأديبه ، وكان عمر يقول :

« الحمد لله أن جعل من ولدي من يعينني على الخير » .

وعهد عمر إلى مولاه سهل بتأديب أبنائه ، وكتب له كتابا أبان فيه عن مقاصده في التربية . وهواه في التأديب ، فقال : أما بعد .. فإني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي ، فصرفتهم اليك عن موالي وذوي الخاصة بي ، فخشهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم ، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك فإن كثرته تميت القلب ، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان ، وعافبتها سخط الرحمن .. وليفتتح كل غلام بجزء من القرآن يتثبت في قراءته . فإذا فرغ تناول قوسه ونبله ، وخرج إلى الفرض حافيا فرمى سبعة أرشاق ثم انصرف إلى القائلة ..

ودخل عبد الملك على أبيه عمر ، وعنده مسلمة بن عبد الملك ، فقال .

« ياأمير المؤمنين إن بى إليك حاجة ، فأخلنى ، فقال له عمر : أسر دون ابن عمك ! ، قال نعم . فقام مسلمة ، وخرج ، وجلس الابن بين يدى أبيه ، فقال . ياأمير المؤمنين ، ماأنت قائل غدا لربك ، إذا سألك ، فقال . رأيت بدعة فلم تمتها ، أو سنة فلم تحيها . ! فقال عمر : يا بنى ، أشىء حملك الرعية إلى ، أم رأى رأيته ؟ قال : بل رأى رأيته من نفسى ، وعرفت أنك مسئول فيما أنت قائل . فقال له أبوه : رحمك الله ، وجزاك من ولد خيرا ، فإنى والله لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير .

وجلس عمر بن عبد العزيز يوما للناس ، فلما انتصف النهار ضجر ومل وكل ، فقال للناس : مكانكم ، حتى انصرف إليكم ودخل ليستريح ساعة ، فجاء ابنه عبد الملك ، فسأل عنه ، فقالوا : دخل ، فاستأذن عليه فأذن له . ولما دخل ، قال : ياأمير المؤمنين ماأدخلك ؟ . قال : أردت أن أستريح ساعة . قالها عبد الله : أو أمنت الموت أن يأتيك ورعيتك على بابك ، ينتظرونك ، وأنت تحتجب منهم . ؟ ! فقام عمر من ساعته ، وخرج إلى الناس .

وقال عبد الله لأبيه : « ياأمير المؤمنين ما يمنعك أن تمضى الذى تريد ؟ فو الذى نفسى بيده ، ماأبالى ، أن لو غلت بى وبك القدور ، قال عمر : وحق هذا منك . قال . نعم والله .

فقـــال عمر : الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعيننى على أمر دينى ، يابنى إنى لو باهت الناس بالذى تقول ، لم آمن أن أن ينكروها ، فإذا أنكروها ، لم أجد بداً من السيف ، ولا خير فى خير لايجىء إلا بالسيف ؛ يابنى ، إنى أروض الناس رياضة صعبة ، فإن بطأ بى عمر أرجو أن ينفذ الله مشيتى ، وإن تعدو على منيتى . فقد علم الله الذى أريده .

ومرض ابنه عبد الملك بالطاعون . واشتد به مرضه فأخبر عمر بذلك ، فأتى ولده ، ووقف عليه ، وقال : يا بنى كيف تجدك ؟ . قال : أجدنى صالحا ـ وكتمه ما به كراهية أن يغمه ـ قال عمر يابنى اصدقنى من نفسك ، فإن أحب الأمور إلىّ فيك لموضع القضاء . قال عبد الملك : أجدنى ياأبت أموت . فولى عمر إلى قبلته ، فبينما هو فى صلاته إذ مات عبد الملك ، فأتاه مزاحم : فقال : ياأمير المؤمنين ، توفى عبد الملك ، فخر عمر مغشيا عليه ولما دفن عمر ابنه عبد الملك وسوى عليه التراب ، سووا قبره بالأرض ، وصنعوا خشبتين من زيتون وضعوا إحداهما عند رأسه والأخرى عند رجليه ، ثم جعل عمر قبر ابنه بينه وبين القبلة ، واستوى قائما ، فأحاط به الناس فقال :

« والله يابنى ، لقد كنت برا بأبيك ، والله ما زلت مذ

وهبك الله لى مسرورا بك ، ولا والله ، ما كنت قط أشد سرورا ولا أرجى لحظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى المنزل الذى صير الله فيه فرحمك الله ، وغفر ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير : من شاهد أو غائب ، وضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره والحمد رب العالمين .

ولما مات عبد الله ظل أبوه يثنى عليه ، فقال له مسلمة بن عبد الملك : ياأمير المؤمنين ، أرأيت لو بقى ، أكنت تعهد إليه ؟ قال عمر : لا . قال . لم ، وأنت تثنى عليه هذا الثناء ؟ فقال عمر . لولا أنى أخاف أن أكون قد زين فى عينى من أمره مازين فى عين الوالد من الولد لرأيت أنه أهل للخلافة .

وعزى رجل عمر بن عبد العزيز وهو على قبر ابنه فقال له ، أجرك الله ياأمير المؤمنين ، وأشار الرجل بشماله إلى القبر فقال له عمر . ياعبد الله ، أشر بيمينك ولا تشر بشمالك ، فقال الرجل . أما فى موت عبد الملك مايشغلك عن شمالى ويمينى ؟! فقال عمر . إذا استأثر الله بشىء قال عنه .

وكتب عمر إلى الأمصار يخبرهم بموت ابنه ، ونهاهم أن يناح عليه ، فإن الله قد أحب قبضه ، ويعوذ عمر بالله أنه يخالف محبته .

وولى ابنه عبد العزيز المدينة ومكة ليزيد بن عبد الملك ، ثم أثبته مروان بن محمد عليهما ، وروى فيها الحديث . ومن أولاده عبد الله وقد ولى الكوفة . ومن بناته الثلاث أمينة وقد مرت على أبيها يوما ، فدعاها عمر « ياأمين ، ياأمين ، فلم تجبه ، فأمر إنسانا أن يأتى بها ، فجاء بها ، فقال لها عمر مامنعك أن تجيبينى ؟ قالت . إنى شبه عارية . فقال عمر ، يامزاحم . انظر إلى تلك الفرش التى فتقناها ، فاقطع لها منها قميصا ، فذهب إنسان إلى أم البنتين عمتها « وقال لها . ابنة أخيك عارية ، وأنت عندك ماعندك . فأرسلت إليها بتخت من ثياب ، وقالت لها لاتطلبى من عمر شيئا .

* * *

وحدث محمد بن سعيد قال ، اسم ولد عمر بن عبد العزيز . عبد الله وبكر وأم عمار ، وأمهم ليس بنت على بن الحارث وإبراهيم وأمه وأم عثمان بنت شعيب بن زيان ، واسحق ويعقوب وموسى ، وأمهم فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وعبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله ، وأمهم أم ولد .

* * *

ويروى بعض المؤرخين أن عبد الملك بن عمر كان يفضل أباه فيما فضل فيه الناس ، وقال اسماعيل بن حكيم : إن عمر بن عبدالعزيز غضب يوما غضبا شديدا - وكان فيه حدة - وعبدالملك ابنه حاضر ، فلما سكن غضبه ، قال عبدالملك : يا أمير المؤمنين ، أنت فى قدر نعمة الله عليك ، وموضعك الذى وضعك به ، وما ولاك من أمر عباده ، يبلغ بك الغضب ما أرى . فقال له أبوه : كيف قلت . فأعاد عليه كلامه ، فقال عمر : أما تغضب يا عبد الملك ؟ فقال عبد الملك : ما تفنى سعة حدتى ، إن لم أرد فيه الغضب حتى لا يظهر منه شىء أكرهه - وكان عبدالملك بطينا .

فى رحاب الله

وكان لعمر بن عبد العزيز أدعية وتوسلات يدعو بها متضرعاً إلى الله . ويرددها فيسيل الدمع من عينه خشية من الله ورهبة من لقائه ، فكان يقول : اللهم رضنى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك ، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت ، اللهم ألبسنى العافية حتى تهنئنى المعيشة ، واختم لى بالمغفرة حتى لا تضرنى الذنوب ، واكفنى كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم لا تعطينى فى الدنيا عطاء يبعدنى من رحمتك فى الآخرة .

يارب ، خلقتنى ، وأمرتنى ونهيتنى . ورغبتنى فى ثواب ما أمرتنى به ، ورهبتنى عقاب ما نهيتنى عنه ، وسلطت على عدوا فأسكنته صدرى ، وأسكنته مجرى دمى ، إن أهم بفاحشة شجعنى ، وإن أهم بطاعة ثبطنى ، لا يغفل إن غفلت ، ولا ينسى إن نسيت ، ينصب لى فى الشهوات ، ويتعرض لى فى الشبهات ، وإلا تصرف عنى كيده يستفزنى ، اللهم فاقهر سلطانه دلى بسلطانك عليه ، حتى تخسئه بكثرة ذكرى لك ، فأفوز مع المعصومين بك ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

يارب ، انعشنى بعقل ، واجعل مأصير إليه أهم إلى مما ينقطع

عنى ، اللهم إنى أحسنت بك الظن : فأحسن لى الثواب ، اللهم أعطنى من الدنيا ما تقينى به فتنتها ، وتغنينى بها عن أهلها ، وتجعله لى بلاغا إلى ماهو خير منها .

ولم يكن بد من أن يتعب جسم عمر بنفسه الكبيرة الخاشعة ، فقد كان حركة دائمة ، يعمل ليل نهار ، حتى ذهبت نضرته واحترق جسمه ، وزاده هما ، فقدانه فى آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعوانه ، فقد توفى أخوه سهل ، وولده عبد الملك ، ومولاه مزاحم ، وكانوا مساعديه فى الأمر ، وخرج عمر من بعدهم ، فخطب الناس ، وأمرهم بشىء مما يصلحهم فكأنهم تشاغلوا عنه . فاغتم لذلك عمر ، وانصرف ودخل داره فدخل عليه بنوه . وكانوا يدخلون عليه بعد صلاة الجمعة ، فيستقرئهم القرآن - فاستقرأهم . فقرأ عليه أولهم : طسم تلك آيات الكتاب المبين ، لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية ، فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

فقال عمر : لقد عزانى الله على لسان ابنى هذا ، وتجلى عنه بعض غمه ، ثم قال : اللهم ، إنى قد مللتهم وملونى فأرحنى منهم وأرحهم منى .

وبعث عمر بن العزيز إلى عبد الله بن أبى زكريا — وكان رجلا من صلحاء الشام — فلما أتاه ، قال له عمر : يا ابن أبى

زكريا ، هل ندري لم بعثت لك ؟ قال : لا . قال عمر : لأمر لست ذاكره لك حتى تحلف لي . فقال : ياأمير المؤمنين ، لا تسألني شيئا إلا فعلته . قال : فأحلف لي . ولما حلف له ، قال عمر : أدع الله أن يميتني . فقال ابن أبي زكريا : يئس الوافد أنا للمسلمين ، وأنا إذاً عدو لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : هاه ، قد حلفت لي ، فقال : الحمد لله ، ودعا له ثم أردف : اللهم لاتبقني بعده .

ومرض عمر بن عبد العزيز مرضه الذي مات منه ، وكان وهو في شدته يقوم حبوا إلى مشن معلق ، فيتوضأ منه ، فيحسن الوضوء ، ثم يأتي مسجده حبوا ، فيصلي . ويدعو الله : اللهم إنك قد قبضت سهلا وعبد الملك ومزاحما ، وكانوا أعواني على ماقد علمت ، فلم أزدد لك إلا حبا ، ولا فيما عندك إلا رغبة ، فاقبضني إليك غير مضيع ، ولا مفرط .

وبلغ ملك الروم أن عمر بن عبد العزيز قد سقي سما فأرسل إليه رأس الأساقفة ، وكتب إليه يعلمه حاله عنه ، وما يوجبه من الحق لمثله من أهل الخير ، وطاعة الله ، ويقول له : « إنه قد بلغني أنك سقيت ، وقد بعثت إليك رأس الأساقفة ، وأطبهم ليعالجك مما بك . ولما قدم رأس الأساقفة على عمر ، قال له : أنظر إلي » . فجسه القس ، وقال : سقيت ياأمير المؤمنين : قال

عمر : فماذا عندك ؟ قال : أسقيك حتى أستخرج ذلك من عروقك فقال له عمر . لو كان روح الحياة بيدك ما مكنتك من ذلك ، ارجع إلى صاحبك، لا حاجة لى فى علاج ، . ثم دعا عمر بالذى اتهمه ، فأقر له ، فقال له عمر ماحملك على ماصنعت ؟ فقال : خدعت وغررت ، فقال عمر : نحه خدع وغرر ، خلوه ، ولم يعرض له بشىء .

ولما مرض عمر دعا أصحابه له طبيبا . فلما نظر إليه قال الطبيب : قد سقى السم ولا آمن عليه الموت ، فرفع عمر بصره . وقال : ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم . فقال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ، قال نعم : قد عرفت حين وقع فى بطنى . قال الطبيب : فتعالج ياأمير المؤمنين . فإنى أخاف أن تذهب نفسك . فقال عمر : ربى خير موهوب إليه ، والله لو علمت أن شفائى عند شحمة أذنى مارفعت يدى إلى أذنى فتناولته ، أو أنه أوانى بطيب ارفعه إلى أنفى ما فعلت ، اللهم خزه لعمر فى لقائك .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك ولى العهد من بعده : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك . السلام عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى كتبت إليك وأنا

دنف من وجعي ، وقد علمت أني مسئول عما وليت ، يحاسبني عليه ملك الدنيا والآخرة ، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملي شيئا ، فإن يرض عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل ، وإن سخط علي فياويح نفسي إلى ما أصير . أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته ، وأن يمن علي برضوانه والجنة ، عليك بتقوى الله . الرعية الرعية ، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلا حتى تلحق باللطيف الخبير ، يا يزيد ، اتق الصرعة عند الغفلة ، فلا تقال العثرة ، ولا تقدر على الرجعة وتترك ما تترك لمن لا يحمدك . وتنقلب إلى من لا يعذرك . والسلام .

وقيل لعمر وهو في شكواه التي هلك فيها ، لو أتيت المدينة فإن قضى الله موتا دفنت في موضع القبر الرابع مع رسول الله وأبي بكر وعمر . فقال ، لأن يعذبني الله بكل عذاب إلا النار أحب إلي من أن يعلم الله أني أراني لذلك أهلا .

واختار عمر المكان الذي يدفن فيه ، وبعث إلى صاحبه وكان نصرانيا بدير سمعان قريبا من دمشق . فساومه بموضع قبره فقال النصراني له : والله يا أمير المؤمنين ، إني لأتبرك بقربك وبجوارك ، وقد أحللتك ، . فأبى عمر إلا أن يبيعه ، فباعه إياه بستة دنانير ، ودعا عمر بالدنانير ، فوضعها في يد الراهب .

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز ليعوده في

مرضه ، فإذا عليه قميص وسخ ؟ فقال لفاطمة بنت عبد الملك : اغسلي قميص أمير المؤمنين . فقالت : نفعل إن شاء الله . ثم غدا عليه مسلمة ، فإذا القميص على حاله ، فقال لها : ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين ، فإن الناس يعودونه ؟ . فقالت : والله ما له قميص غيره . وقال عمر : دعها يا مسلمة ، فما أصبح ولا أمسى لأمير المؤمنين ثوب غير الذي يرى عليه . .

وقال عمر بن عبد العزيز وهو في شدته لرجاء بن حيوة . يا رجاء ، إذا مت وغسلتموني وكفنتموني وصليتم علي ، وأدخلتموني لحدي . فاجذب اللبنة من رأسي ، فإن رأيت وجهي إلى القبلة ، فاحمدوا الله واثنوا عليه . وإن رأيت قد زويت عنها ، فاخرج إلى المسلمين ما داموا عند لحدي ، حتى يستوهبوني من ربي ، فلقد دفنت ثلاثة من الخلفاء ، كلهم أنا وضعته في لحده ، حللت العقدة ، ثم نظرت إلى وجهه فإذا وجهه مسود في غير القبلة .

. . .

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، ألا توصي ؟ فقال عمر : وهل من مال أوصي به ! فقال مسلمة : مائة ألف أبعث بها إليك فهي لك ، فأوصي بها . فقال عمر : فهلا غير ذلك يا مسلمة ؟ قال مسلمة : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال تردها من حيث أخذتها . فبكى مسلمة ، وقال : رحمك الله : لقد

ليفت منا قلوبا كانت قاسية ، وزرعت فى قلوب الناس لنا مودة ، وأبقيت لنا فى الصالحين ذكرا .

ثم قال مسلمة : يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه أخيلتك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولابد من شىء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلى ، أو إلى نظرائى من أهل بيتك ، لكفيتك مئونتهم إن شاء الله .

فقال عمر : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفنى يا مسلمة . أما ما ذكرت من أنى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، فإنى لم أمنعهم حقا هو لهم ، ولم أكن أعطيهم حقا هو لغيرهم ، وأما ما سألت من الوصاية إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتى فإن وصيى ووليى فيهم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فسيجعل الله له من أمره يسرا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ورجل فاجر فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادعوا لى بنى .

وجعل عمر يقعد بصره فيهم ويصوبه . حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال : بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بنى إنى قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بنى ، إنى مثلت رأيى بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار ، قوموا يا بنى ، عصمكم الله ورزقكم .

وكان عمر بن عبدالعزيز يقول لمن يسأل الله له أن يخفف عنه الموت: ما أحب أن يخفف عنى سكرات الموت ، لأنه آخر ما يؤجر عليه المسلم .

ولما احتضر عمر ، وكان عنده مسلمة بن عبد الملك وفاطمة زوجته ، قال : أخرجوا عنى . فلا يبقى عندى أحد ، فخرجوا : وقعد مسلمة على الباب ، وجلست فاطمة فى بيت آخر بينها وبينه باب ، وعمر نائم فى قبة له ، فسمعوه يقول مرحبا بهذه الوجوه . ليست بوجوه إنس ولا جان. ثم قال . تلك الدار الآخرة ، نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين .. »

ثم هدأ الصوت ، فقالت فاطمة للوصيف الذى يخدمه . أنظر أمير المؤمنين ، فلما دخل عليه ، صاح . فوثبت فاطمة ، فدخلت عليه ، فإذا هو ميت قد استقبل القبلة . وأغمض نفسه ، ووضع إحدى يديه على عينيه ، والأخرى على فيه .

وكان ذلك لعشر ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وبضعة أشهر ، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر . وقد مات بدير سمعان .

* * *

ولما توفى عمر جاء الفقهاء إلى زوجته يعزونها ، فقالوا لها: جئناك

لنعزيك بعمر ، فقد عمت مصيبته الأمة ، فأخبرينا ، يرحمك الله عن عمر ، كيف كانت حاله فى بيته ، فإن أعلم الناس بالرجل أهله .

فقالت فاطمة . والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياما ، ولكنى والله ما رأيت عبدا لله قط كان أشد خوفا لله من عمر ، والله إن كان ليكون فى المكان الذى إليه ينتهى سرور الرجل بأهله . بينى وبينه لحاف فيخطر على قلبه الشىء من أمر الله ، فينتفض كما ينتفض الطائر من وقع الماء ، ينشج ، ثم يرتفع بكاؤه ، حتى أقول : والله لتخرجن نفسه ، فأطرح اللحاف عنى وعنه رحمة لنا وأنا أقول : ياليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها ، وإن عمر رحمة الله عليه كان قد فرغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسى وقد فرغ من حوائج يومه بليلته ، وقد أمسى مساء ، قعد بسراجه الذى كان من ماله الخاص ، وصلى ركعتين ، ثم أقعى واضعا رأسه على يديه ، تسيل دموعه على خديه ، يشهق الشهقة يكاد يتصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه ، حتى برق الصبح ، فأصبح صائما ، فدنوت منه ، وقلت . ياأمير المؤمنين . أليس كان منك ما كان ؟ . قال . أجل فعليك بشأنك وخلينى وشأنى . فقلت له ، إنى أرجو أن أنعظ . قال : إذن أخبرك ، إنى نظرت فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة ، أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذا المال القليل والعيال الكثير ، وأشباه ذلك فى أقاصى

البلاد ، وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلي عنهم ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حجيجي فيهم ، فخفت ألا يقبل الله مني معذرة فيهم ، ولا تقوم لي مع رسول الله حجة ، فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ووجع لها قلبي ، كلما ازددت لها ذكرا ازددت منها خوفا ، فاتعظي إن شئت أو ذري .

وبلغت وفاة عمر بن عبد العزيز راهبا ، فبكى عليه سجاما ، ولما سئل في ذلك : ما يبكيك عليه وليس من أهل دينك ؟ فأجاب إني لست أبكي عليه ولكني أبكي على نور كان في الأرض وطفئ .

وقال ملك الروم وقد بلغه موت عمر . لو كان أحد يحيي الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز . وإني لست أعجب من الراهب ، أن أغلق بابه ورفض الدنيا ، وترهب وتعبد ، ولكني أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب .

ولما مات عمر بن عبد العزيز رثاه الشعراء ، فقال الفرزدق .

كم من شريعة حق قد شرعت لهم ... كانت أميتت وأخرى منك تنتظر

يا لهف نفسي ، ولهف اللاهفين معي ... على العدول التي تفتالها الحفر

وقال جرير :

تنعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمرا

محمّلات أمرا عظيما فاضطلعت به ... وسرت فيه بحكم الله يا عمرا

الشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

وقال ابن عائشة .

أقول لما نعى الناعى لنا عمرا ... لا يبعدن قوام الحق والدين
لم تلهه عمره عين يفجرها ... ولا النخيل ولا ركض البراذين
قد غادر القوم فى القبر الذى لحدوا ... بدير سمعان قسطاس الموازين

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى أهدى الشاعر العلوى ، الشريف الرضى ، قصيدة من الشعر الحار الجميل إلى ذكرى عمر بن عبد العزيز ، وفيها يقول :

يا ابن عبدالعزيز لو بكت لى عين ... فتى من أمية لبكيتك
غير أنى أقول أنك قد طبت ... وإن لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والقذف ... فلو أمكن الجزاء جزيتك
ولو انى رأيت قبرك لاستحييت ... من أن أراه وما حييتك
وقليل أن لو بذلت دماء البدن ... ضربا على الثرى وسقيتك
دير سمعان لا أغبك غاد ... خير ميت من آل مروان ميتك
أنت بالذكر بين عينى وقلبى ... إن تدانيت منك أو قد نأيتك
وإذا حرك الحشا خاطر منك ... توهمت أنى قد رأيتك
وعجيب أنى قليت بنى مروان ... طرا وأنى ما قليتك
قرب العدل منك لما نأى الجور ... بهم فاجتنبتهم واجتبيتك
فلو أنى ملكت دفعا لما نا ... بك من طارق الردى لفديتك

هذا هو عمر بن عبد العزيز وهذه سيرته ، ومهما يكن من شيء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على السواء ، فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين ، وقد رضي عنه العلويون ، وكان موضع احترام الخوارج وتقديرهم ، ثم إن العباسيين عندما قامت دولتهم احترموا قبره ، فلم يفبشوه كما نبشوا قبور غيره من بني أمية .

وقد كان عمر بن عبد العزيز داعية للسلام في القرن الأول الهجري، وسعى لتوفيره في العالم ، وحسبه ذلك مفخرة في الدنيا وقربة في الآخرة .

ولطيب ذكر عمر بن عبد العزيز عني به المؤلفون والمؤرخون عناية لم تعهد لغيره ، وأفرد له ابن الحكم كتابا حوى سيرته ، وسار على نهجه من بعده عبدالعزيز بن الجوزي ، ولا يخلو كتاب من الكتب الأمهات من سيرة عمر ، شذى عاطرا ونفحا طيبا يدرسه الخلف عن خير إمام .. من السلف .